

الباب التاسع والعشرون

استسلام الفلسفة

ثلاث نزعات امتزجت في الفلسفة اليونانية : النزعة الطبيعية (الفيزيقية) والنزعة الميتافيزيقية ، والنزعة الأخلاقية . ووصلت النزعة الطبيعية إلى غايتها في أرسطو والميتافيزيقية في أفلاطون ، والأخلاقية في زينون القيتيومي ، وانتهى تطور النزعة الطبيعية بفصل العلم عن الفلسفة على يد أركميديز ، وهبارخوس ، وانتهت النزعة الميتافيزيقية بتشكك بيرون Pyrrho والمجمع المتأخر ، وبقيت النزعة الأخلاقية حتى غلبت المسيحية على الأبيقورية والرواقية أو اندمجتا فيها .

الفصل الأول

هجوم المتشككة

لقد احتفظت أثينة في هذه الثقافة الهلنسية - وكانت هي أم الكثير ، وسيدة الجزء الأكبر ، منها - احتفظت فيها بمكان الزعامة في ميدانين : التمثيل والفلسفة . ولم يكن العالم منهمكا في الحروب والثورات ، والعلوم الحديدية والأديان الحديدية ، وحب الجمال والجري وراء المال ، لم يكن منهمكا في هذا كله إلى حد لا يستطيع معه أن يجد بعض الوقت ينفقه في المشاكل التي لا يجد لها جوابا ، ولكنها لا تنفك تواجهه فلا يستطيع منها فراراً ، مسائل الخطأ والصواب ، والمادة ، والعقل ، والحرية والضرورة ، والنبيل والخسة ، والحياة والموت . وقدم الشبان من جميع مدن البحر الأبيض المتوسط ، وكثير

ما كانوا يلاقون أشد الصعاب وهم قادمون ، ليدرسوا في الأبهاء والحدائق التي خلفها أفلاطون وأرسطو آثاراً لهما خالدة من بعدهما .

وواصل ثاوفراسطوس السبوسى المحد النشاط في اللوقيون تقاليد الطريقة الاختبارية . لقد كان المشاعون علماء وباحثين أكثر منهم فلاسفة ، وهبوا حياتهم للبحث المتخصص في علوم الحيوان والنبات ، والسير ، وتاريخ العلوم ، والفلسفة ، والأدب ، والقانون . وارتاد ثاوفراسطوس في أثناء زعامته العلمية التي دامت أربعاً وثلاثين سنة (٣٢٢ - ٢٨٨) ميادين علمية كثيرة ، ونشر بحوثه في أربعائة مجلد تكاد تعالج كل موضوع من الحب إلى الحرب . وقد شدد التركيز على النساء في رسالته « في الزواج » ، فردت عليه لينتيوم حظية أبيقور برسالة غزيرة المادة ، شديدة الوقع عليه ، فندت فيها آراءه^(١) . ومع هذا فإن اثنيوس يعزو إلى ثاوفراسطوس ذلك القول الدال على رقة العاطفة : « إن التواضع هو الذى يجعل الرجال جيلاً »^(٢) ويصفه ديجين ليرنس بأنه « من أحب الناس للخير ومن أكثرهم ظرفاً » . وقد بلغ من فصاحته أن نسي الناس اسمه الأول فلم يذكره إلا بالاسم الذى أطلقه عليه أرسطو والذى يعنى أنه يتكلم كما تتكلم الآلهة ؛ وقد بلغ من حب الناس إياه أن ألفين من الطلاب كانوا يهرعون إلى سماع محاضراته ، وكان مناندر من أخلص أتباعه^(٣) .

أوقد عنى الناس من بعده أشد العناية بالاحتفاظ بكتابه في « الأخلاق » ، ولم يكن احتفاظهم به لأنه أوجد طرازاً جديداً في الأدب ، بل لأنه سخر أشد السخرية من الأخطاء التي يعزوها الناس جميعاً لغيرهم من الناس . فهنا الرجل الثرثار الذى يبدأ يمدح زوجته ، ثم يروى الرويا التي نراها في الليلة السابقة ، ويعدد أصناف الأطعمة التي تناولها في العشاء صنفاً صنفاً ؛ ثم يحتم حديثه بقوله « إننا لم نعد كما كنا » من قبل في الأيام الخالية . وهنا الرجل الغبي الذى

« إذا ذهب ليشاهد مسرحية ، تركه الناس في آخر التمثيل مستغرقاً في النوم في الدار الخاوية . . فهو يثقل معدته بالعشاء الدسم ، فيضطر إلى السهر ليلاً ، ويعود إلى منزله وهو بين النوم واليقظة ، فلا يعرف بابيه ، ويعضه كلب جأره » (٤) .

ومن الحوادث القليلة في حياة ثاوفراسطوس أن الدولة أصدرت مرسوماً (٣٠٧) يحتم موافقة الجمعية على من يختارون لرياسة المدارس الفلسفية . وحوالي هذا الوقت نفسه ، وجه أجنيديز Agnonides إلى ثاوفراسطوس التهمة القديمة ، تهمة المروق من الدين ؛ فما كان من ثاوفراسطوس إلا أن غادر أثينة في هدوء ، ولكن الطلاب الذين غادروها بعده بلغوا من الكثرة حداً جعل التجار يجأرون بالشكوى من كساد بضاعتهم الذي يوشك أن يحل بهم الخراب . فلم تمض سنة على صلور المرسوم حتى اضطرت الدولة إلى إلغائه ، وعاد ثاوفراسطوس ظافراً لرأس اللوقيون ويظل وئيساً لها إلى قرب وفاته في سن الخامسة والثمانين . ويقال إن « أثينة بأجمعها » شيعت جنازته . ولم تبق مدرسة المشائين طويلاً بعد وفاته ؛ ذلك أن العلم خرج من أثينة بعد أن افتقرت إلى الإسكندرية الغنية الرخيبة ، وانحطت اللوقيون التي كانت قد وهبت نفسها للبحث العلمي فلم يعد يسمع الناس عنها إلا القليل .

وفي هذه الأثناء كان اسبيوسهوس Speusippus قد خلف أفلاطون أكسانوقراطيس أسبيوسهوس Xenocrates Speusippus في الجمع العلمي . وظل أكسانوقراطيس يحكم الجمع ربع قرن من الزمان (٣٣٩ - ٣١٤) ، ورفع من شأن الفلسفة بحياته التبيلة البسيطة . وقد انهمك في الدرس والتعليم ، فلم يكن يترك الجمع إلا مرة واحدة في العام ليشهد المآسي الديونيشية ، ويقول ليرتيوس إنه كان إذا ظهر « أفسح الطريق له غوغاء المدينة المشاكسون المشاغبون » (٥) . وكان يأتي أن يتقاضى أجراً ما على عمله . وبلغ من فقره

أن كاد يزوج به في السجن لعجزه عن أداء الضرائب ، ولكن أمثريونيس الفالرومي أدى عنه ما كان متأخراً عليه وأطلق سراحه . وقال فليب المقدوني إن أكسانوقراطيس كان أظهر يدا من جميع الشعراء الأثينيين. الذين أرسلوا إليه . وقد تضايقت فرينى Phryne من اشتهاره بالفضيلة ، فادعت أن بعض الناس يطاردونها ، ولحأت إلى بيته ، ولما رأت أن ايس فيه إلا سرير واحد سألته هل يقبل أن تنام معه فيه . وأجابها إلى ما طلبت مدفوعاً إلى ذلك ، على ما يقال لنا ، بعوامل إنسانية محضة ؛ ولكنه بلغ من برودة وعدم استجابته لتوسلاتها وفتنتها ، أن فرت من فراشه وضيافته ، وشكته إلى أصدقائه قائلة إنها وجدت تمثالا لا رجلا^(٦) . ذلك أن أكسانوقراطيس لم يكن يريد أن يعيش غير الفلسفة .

ولما مات أو شكت الزعة الميتافيزيقية في التفكير اليوناني أن يقضى عليها في الأيكة التي كانت مزارها ومعبدها . ذلك أن خلفاء أفلاطون كانوا من علماء الرياضة والأخلاق ، وقلما كانوا ينفقون شيئاً من وقتهم في دراسة المسائل المجردة التي كانت من قبل تتردد بين جوانب الجمع العلمي ، واستعدادات تحديات زينون الإليائي التشككية ، ونزعة هرقليطس الموضوعية ، وتشكك غورغياس وپروتاغواس المنظم ، ولا أدرية سقراط وأرسطوس وإقليدس المجاري ، استعداد هذه كلها ما كان لها من سيطرة على الفلسفة اليونانية ، وكان ذلك خاتمة عصر العقل . لقد فكروا في كل فرض من الفروض العلمية ، وبحث ثم نسي وأهمل ؛ واحتفظ الكون بأسراره ، ومل الناس البحث الذي عجزت عنه أئمة العقول نفسها . وكان أرسطو قد اتفق مع أفلاطون في نقطة واحدة - وهي أن في الإمكان الوصول إلى الحقيقة النهائية^(٧) . وعبر پرون Pyrrho عن تشكك عصره بقوله إن هذه النقطة هي التي أخطأ فيها الفيلسوفان أكثر مما أخطأ في أية نقطة أخرى .

وولد پرون في أليس Elis حوالي عام ٣٦٠ وسار مع جيش الإسكندر

الزاحف على الهند ، وتلقى العلم على « من فيها من » السوفسطائيين العراة Omnosophists ، ولعله أخذ عنهم بعض آرائهم عن التشكك الذى صار اسمه مرادفا له فيما بعد . ولما عاد إلى إيليس عاش فقيراً يعلم الناس الفلسفة . وقد منعه الحياء من تأليف الكتب ، ولكن تلميذه تيمون الفليوسى Timon of Phlius نشر آراء بيرون في أنحاء العالم في سلسلة من رسائل الهجاء (Silloli) . وكانت هذه الآراء تقوم على ثلاث قواعد رئيسية أولاها : أن الحقيقة لا يمكن الوصول إليها ، وأن الرجل العاقل يرجئ حكمه ، ويبحث عن الطمأنينة لا عن الحقيقة ؛ وأنه لما كانت كل النظريات خاطئة في أغلب الظن فإن من الخير للإنسان أن يقبل أساطير زمانه ومكانه وما جرى به العرف فيهما . وثانيها أن ليس في مقدور الحواس أو العقل أن تمدنا بعلم أكيد : فالحواس تشوه الشيء الخارجى حين تحسه ، وليس العقل إلا خادماً للشهوات المغالط الخادع . وكل قياس منطقي يصادر على المحمول لأن قضيته الكبرى تفترض صحة النتيجة . « وكل علة لها علة تقابلها وتناقضها (A) » ؛ والتجربة الواحدة قد تكون سارة حسب الظروف المحيطة بها ومزاج صاحبها ؛ والشيء الواحد قد يبدو صغيراً أو كبيراً ، قبيحاً أو جميلاً ؛ والعمل الواحد قد يعد فضيلة أو ذيلة حسب المكان والزمان اللذين نعيش فيهما ؛ والآلهة نفسها قد تكون وقد لا تكون حسب اعتقاد أمم الخلائق المختلفة ؛ وكل شيء هو رأى ، ولا شيء قط حقيقى كل الحق - فمن الحق إذن أن ينحاز الإنسان في المنازعات إلى هذا الجانب أو ذلك ، أو أن يبحث له عن مكان آخر يعيش فيه أو طريقة أخرى يعيش بها ، أو أن يحسد المستقبل أو الماضى ، ؛ فالرغبات كلها خداع باطل . وحتى الحياة نفسها خير غير مؤكد ، والموت نفسه ليس شراً مؤكداً ، والواجب على الإنسان ألا يتعجز ضد هذا الشيء وذلك . وثالثة هذه القواعد أن أفضل الأشياء جميعها للإنسان أن يقبل الحياة كما هي في هدوء واطمئنان ، فلا يحاول إصلاح العالم ، بل يرضى به وهو صابر عليه ، ولا ينهمك في العمل على تقدمه ، بل يقنع بالسلام . وسحاول بيرون مخلصاً أن يسير في حياته على

هدى هذه الفلسفة النصف الهندية ، فخضع لعادات إليس وعبادتها ، ولم يبذل جهداً ما في تجنب الأخطار أو إطالة حياته^(٩) ، ومات في سن التسعين . وأحبه مواطنوه ورضوا عنه وكرمواه بأن أعفوا زملاءه الفلاسفة من الضرائب .

وكان من سخريات الأيام أن أتباع أفلاطون هم الذين وجهوا هذه الحملة على الميتافيزيقا . ذلك أن أرسيلوس الذي أصبح في عام ٢٦٩ رئيس « المجمع العلمي الأوسط » حول رفض أفلاطون للمعاملات المستمدة من الخواص إلى تشكك كامل يضارع في ذلك تشكك بيرون ، ولعلمهم فعلوا ذلك بتأثير يبرزون نفسه . ومن أقوال أرسيلوس في هذا المعنى : « لا شيء مؤكد ، حتى ذلك القول نفسه^(١١) » . ولما قيل له إن هذه العقيدة تجعل الحياة مستحيلة قال إن الحياة قد عرفت من زمن بعيد كيف تدبر أمراً بالاحتمالات . وقام على رأس « المجمع العلمي الجديد » بعد قرن من الزمان رجل آخر كان أكثر تشككاً من أرسيلوس ، وأوصل عقيدة التشكك العام إلى العدمية الذهنية والأخلاقية ، ونعى بذلك الرجل قرنيداس القوريني *Carneades of Cyrene* . فقد جاء هذا الأبلار^(*) اليوناني إلى أثينة حوالي عام ١٩٣ ، ونقص الحياة على كريسبوس *Chrysippus* وغيره من معلميه ، بحججه الدقيقة المؤلمة ضد كل عقيدة يعلمونها . وإذا كانوا يبغون أن يجعلوه عالماً منطقياً ، فقد اعتاد أن يقول لهم موجهاً قوله إلى پروتاغوراس : « إذا كان منطقي صحيحاً فيها ونعمت ، وإذا كان خطأ فأعيدوا إلى ما أدبته من الأجر لتعليمي^(١٢) . ولما أنشأ نفسه حانوتا كان يحاضر في صباح يوم ما فيحبد رأياً من الآراء ، وفي اليوم التالي يجبد نقيضه ، ويبرهن على صحة كليهما بحيث يقضي عليهما جميعاً ، بينما كان تلاميذه ، وكاتب سيرته نفسه ، يحاولون عبثاً أن يعرفوا آراءه الحقيقية . وأخذ على عاتقه أن يفند واقعية الرواقين المادية ببحثه التحليل الأفلاطوني - الكانتي في الخواص والعقل .

(*) بيير أبلار Pierre Abelard الفيلسوف الفرنسي ١٠٧٩ - ١١٤٢ . (المترجم)

وهاجم كل النتائج المنطقية ووصفها بأنها لا استطاع الدفاع عنها عقليا ، وأمر طلابه أن يقنعوا بالاحتمالات ويرضوا بعبادات زمانهم . ولما أرسلته أثينة ضمن بعثة سياسية إلى رومة (١٥٥) أدهش مجلس الشيوخ بأن خطب في يوم من الأيام مدافعا عن العدالة ، ثم خطب في اليوم التالي مستهزئا بها وواصفا إياها بأنها حلم غير عملي وقال : إذا شئت رومة أن تتبع طريق العدالة فعلها أن تعيد إلى أم البحر الأبيض المتوسط كل ما أخذته منها بفضل تفوقها عليها في القوة (١٣) . وفي اليوم الثالث اضطر كاتو أن يعيد البعثة إلى بلدها لأنها خطر على الأخلاق العامة . وربما كان بوليوس - وكان وقتئذ رهينة عند سيبو - قد سمع هاتين الخطبتين أو سمع عنهما ، لأنه يندد تنديد الرجل العملي بأولئك الفلاسفة .

« الذين دربوا أنفسهم في مناقشات المجمع العلمي على الإفراط في الاستعداد للخطابة . ذلك أن بعضهم يلجئون إلى أشد الأشياء تناقضا فيما يبذلون من جهد ليحيروا عقول سامعيهم ، وأنهم برعوا في اختراع ما يبررون به هذه المتناقضات ، حتى أنك تراهم يتناقشون وهم حيارى لا يدرون هل يستطيع من في أثينة أن يشموا رائحة البيض الذي يغلى في إفسوس أو لا يستطيعون أن يشموها ، ويظنون طوال الوقت الذي يناقشون فيه مسألة في المجمع العلمي أنهم قد يكونون نائمين في بيوتهم يؤلفون خطبهم في أحلامهم . . وقد سوعوا سمعة الفلسفة جميعها بهذا الحب المفرط للمتناقضات . . . وغرسوا في عقول شبابنا هذا الحب الشديد ، فكان من أثره أن أولئك الشبان لا يفكرون أقل تفكير في المسائل الأخلاقية والسياسية التي تفيد طلاب الفلسفة بحق ، بل تراهم يقضون وقتهم في محاولات عديمة الجدوى لاختراع السخافات والأباطيل التي لا نفع فيها » (١٤) .

الفصل الثاني

فرار الأبيقورية

لقد أخطأ پوليبوس إذ ظن أن المسائل الأخلاقية قد فقدت إغراءها للعقل اليوناني ، وإن كان قد وصف للأجيال التالية الكثيرة صاحب النظريات الذي يضع حياته في دياجير البحث النظري المعقد . ودليلنا على خطئه في هذا الظن أن النغمة الأخلاقية نفسها هي التي حلت في ذلك العهد محل النغمتين الفيزيقية والميتافيزيقية فكانت النغمة السائدة في الفلسفة . والحق أن المشاكل السياسية قد خدت ناراها لأن حرية الكلام قد قضى عليها وجود الحاميات الملكية في البلاد أو ذكرى وجودها ، وفهم الناس ضمنا أن الحرية القومية إنما تقوم على الهدوء والاستقرار . يضاف إلى هذا أن مجد الدولة الأثينية كان قد انقضى عهده ، وأن الفلسفة كان عليها أن تواجه تلك القطيعة التي لم يكن لبلاد اليونان عهد بها من قبل ونعني بها القطيعة بين السياسة والأخلاق . وكان عليها أن تجد أسلوبا للحياة يجمع بين رضاء الفلاسفة وعدم التعارض مع العجز السياسي . ولذلك لم تفهم المشكلة التي تواجهها على أنها لم تعد مشكلة بناء دولة عادلة ، بل فهمتها على أنها تكوين الفرد الراضى القانع المنطوى على نفسه .

وقد سار التطور الأخلاقي وقتئذ في اتجاهين متضادين ؛ فسلك أحدهما السبيل التي يتزعمها هرقلطس ، وسقراط ، وأبستانس ، وديجين ، ووسع نطاق الفلسفة الكلية حتى أضحت هي الفلسفة الرواقية . وتفرع الطريق الآخر من دمقريطس ومال ميلا شديدا نحو أرسطو وأجندب العقيدة القورينية إلى العقيدة الأبيقورية . وجاءت النزعتان من آسية وكانت كلتاها تعويضا فلسفيا عن التدهور الديني والسياسي الذي حل في ذلك الوقت . فاشتقت الرواقية من العقيدة السامية عقيدة وحدة الوجود ، والجزرية ، والاستسلام

للقبضاء والقدر ؛ واشتقت الأبيقورية من طبيعة اليونان المستوطنين شواطئ آسية وما فطروا عليه من حب اللذة .

وقد ولد أبيقور في جزيرة ساموس عام ٣٤١ . وتشغف بالفلسفة وهو في الثانية عشرة من عمره ؛ ولما بلغ التاسعة عشرة رحل إلى أثينة وقضى عاماً في مجملها العلمي ، وكان كفرنسيس بيكن يفضل ديمقريطس عن أفلاطون وأرسطو ، وعنه أخذ بعض اللبانات التي شاد بها فلسفته ، كما أخذ عن أرسطوس حكمة اللذة ، وعن سقراط للذة الحكمة ، وعن بيرون عقيدة الهدوء ، واسمها الطنان الرنان أتركسيا Ataraxia : وما من شك في أنه كان يرقب بكثير من الاهتمام حياة معاصره ثيودورس القوريني ، الذي كان يخطب في أثينة داعياً إلى الخروج على الدين والأخلاق جهرة وفي صراحة جعلت الجمعية توجه إليه تهمة الإلحاد (١٥) — وكان درساً لم ينسه أبيقور قط . ثم عاد إلى آسية وأخذ يلقي محاضرات في الفلسفة في كلوفون Colophon . وقد بلغ من تأثر للمفسكين بأرائه وأخلاقه أن شعروا بوخز ضميرهم على أنانيتهم إذ يحتفظون به في مدينتهم النائية ، فجمعوا مبلغاً من المال قدره ثمانون مينا (٤٠٠٠ ريال أمريكي) ، واشتروا به بتاً وحديقة في ضواحي أثينة ، وأهدوها إلى أبيقور ليكون له مدرسة ومنزلاً . ولما بلغ أبيقور الخامسة والثلاثين من عمره في عام ٣٠٦ اتخذ هذه الدارسة مسكناً له وأخذ يعلم الأثينيين فلسفة لم تكن أبيقورية إلا في اسمها ؛ وكان من أدلة تبحر النساء في ذلك الوقت أنه كان يرحب بهن حين يجئن للاستماع إلى محاضراته ، بل كان يرحب بهن في الجماعة القليلة العدد التي كانت تسكن معه . ولم يكن يفرق بين الناس بسبب مراكزهم أو أجناسهم ، فكان يقبل العاهرات والزوجات ، والأرقاء والأحرار ، وكان أحب تلاميذه إليه عبده ميسيس Mysis : وأضححت العاهر ليونتيوم Leontium عشيقته وتلميذته ، ووجدت فيه رفيقاً شديداً الغيرة كأنه قد حصل عليها بالطريقة

القانونية المرسومة . وولدت منه طفلاً واحداً ، وبثأثيره ألفت عدة كتب لم يتأثر فيها أسلوبها بفساد أخلاقها :

وأما فيما عدا هذا فقد عاش أبيقور عيشة الرواقين البسيطة ، واتخذ له شعاراً « عش معتدلاً » . وكان يؤدي واجبه في طقوس المدينة الدينية ، ولكنه لم يلوث يديه بشئونها السياسية ، ولم يقيد روحه بشئون العالم . وكان يقنع في غذائه بالماء وقليل من الخمر ، والخبز والحب . وكان منأفسوه يتهمونه بأنه يملأ معدته بالطعام حين كان ذلك في مقدوره ، وأنه لم يتعفف عن الإكثار منه إلا حين أتلّف جهازه الهضمي بكثرة الأكل . ولكن دييجين ليرتيوس يؤكد لنا : « أن الذين يقولون هذا مخطئون جميعهم » ويضيف إلى ذلك قوله : « إن كثيراً من الناس ليشهدون بما ينطوى عليه قلب الرجل من شفقة ، ليس بعدها شفقة ، على الناس جميعاً - سواء في ذلك أهل بلاده التي كرمته بإقامة التماثيل ، وأصدقائه الذين كانوا من الكثرة بحيث تضيق بهم مدن برمتها (١٧) » . وكان باراً بأبويه ، سخيّاً مع إخوته ، رفيقاً بخدمة الذين كانوا يشتركون معه في دراساته الفلسفية . ويقول سنكا إن تلاميذه كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى إله قائم بينهم ، وكان شعارهم بعد موته هو : « عش كأن عين أبيقور ترقبك » .

وقد وجد بين دروسه وحبه من الوقت ما يؤلف فيه ثلاثمائة كتاب . وحفظ لنا رماد هركيولاتيوم قطعاً متفرقة من أهم كتاب له وهو المسمى « في الطبيعة » . وورث المتأخرون عن دييجين ليرتيوس ، أفلاطونخس الفلسفة ، ثلاثة من خطابه ، وأضاف إليها الاستكشافات المتأخرة عدداً آخر منها قليلاً . وأهم من هذا كله أن لكريشيوس خلد أفكار أبيقور في قصيدة له تعد أعظم القصائد الفلسفية على الإطلاق .

ولعل أبيقور قد أدرك وقتئذ أن فتوح الإسكندر كانت تطلق من الشرق على بلاد اليونان ما لا يحصى من الطقوس الغامضة الخفية ، فبدأ بتقرير المبدأ



(ننگ ۶۱) انتصار ستھریس (متحف اللوثر پاریس)

القائل إن هدف الفلسفة هو أن تحرر الناس من الخوف - وخاصة من خوف الآلهة ؛ وهو يكره الدين لأن الدين ، في رأيه ، يقوم على الجهل ، ويزيده ، ويظلم الحياة بما يبثه في النفس من رهبة جواسيس السماء ، والأقدار الصارمة القاسية ، والعقاب الذي لا يقف عند حد . ويقول أبيقور إن الآلهة موجودة ، وإنما تستمتع في مكان بعيد بين النجوم بحياة صافية هادئة منزهة عن الموت ، ولكنها أعقل من أن تشغل نفسها بشئون البشر . وهم ذلك النوع الصغير النافه من الخلائق . وليست الآلهة هي التي أنشأت العالم وليست هي التي ترشده وتسيره . وكيف يستطيع هؤلاء الأبيقوريون المقدسون أن يخلقوا هذا العالم الوسط ، وهذا المشهد المكون من خليط من النظام والفوضى ؛ والجبال والألم (١) ؟ ؛ ويضيف أبيقور إلى ذلك قوله : « فإن كان هذا لا يرضيكم ، فلتعزوا أنفسكم بأن تفكروا في أن الآلهة بعيدة عنكم بعداً لا يستطيع معه أن تضركم أو تنفعكم ، ذلك أنها لا تستطيع أن تراقبكم ، أو أن تحكم على أعمالكم ، أو أن تقذف بكم إلى الجحيم . أما الآلهة الخبيثة أو الشياطين فهي أوهام تعسة تصورها لنا أحلامنا » .

وبعد أن رفض أبيقور الدين رفض أيضاً الميتافيزيقا . وحجته في هذا أننا عاجزون عن معرفة شيء عن العالم الذي لا تتركه الحواس ؛ ولذلك يجب ألا نشغل عقولنا بغير التجارب التي تتركها الحواس ، وأن نعد هذه التجارب آخر محك للحقيقة : ويجمع أبيقور في جملة واحدة كل المسائل التي ناقشها لك Locke وليبنز Leibnitz بعد ألني عام من ذلك الوقت : إذا لم تأت المعرفة من الحواس ، فمن أي طريق آخر تأتي إذن ؟ وإذا لم تكن الحواس هي الحكم الأخير في الحقائق ، فكيف نجد هذا الحكم في العقل الذي لا تصل إليه المعلومات إلا عن طريق الحواس ؟

ومع هذا فهو يرى أن الحواس لا تمدنا بمعلومات أكيدة عن العالم الخارجي ، فهي لا تمسك بالشيء الخارجي نفسه ، بل تمسك بالذرات الدقيقة التي يقذف

بها كل جزء من سطحه ، والتي تطبع على حواسنا نسخة صغيرة من طبيعته وشكله فإذا كان لابد لنا والحالة هذه أن نكون لأنفسنا نظرية عن العالم (وليس تكوين هذه النظرية في واقع الأمر ضرورياً) فخير لنا أن نأخذ برأى دمقريطس القائل بأن لا شيء موجود ، أو يمكن أن يكون معروفاً لنا ، بل لا شيء يمكن أن نتخيله ؛ اللهم إلا الأجسام والفضاء ، وبأن الأجسام كلها تتألف من ذرات لا تنقسم ولا تتغير ... وليس لهذه الذرات لون ، ولا حرارة ، ولا صوت ، ولا ذوق ، ولا رائحة . وإنما تنتج كلها من الكبريات المشعة من الأجسام والتي تلتقي على أعضاء الحس في أجسامنا . ولكن الذرات تختلف في حجمها ، ووزنها وشكلها : لأن هذا الفرض وحده هو الذي نستطيع أن نفسر به ما بين الأشياء من اختلاف لا آخر له . وكان أبيقور يجب أن يفسر عمل الذرات على مبادئ آلية خالصة ، ولكنه لما كان مولماً بالأخلاق أكثر من ولعه بنظام الكون ، ولما كان حريصاً على أن يستمسك بحرية الإرادة بوصفها مصدر التبعية الأخلاقية ودعامة الشخصية ، فإنه يترك دمقريطس مغلقاً بين السماء والأرض ، ويفترض وجود نوع من التلقائية في الذرات : فهي تمجد قليلاً عن الخط العمودي حين تهوى في الفضاء ، وبهذا تدخل في التراكيب التي تتكون منها الأركان (العناصر) الأربعة ، والتي تتكون منها ... عن طريق هذه الأركان ... المشاهد الخارجية^(٢٠) . وهناك عوالم كثيرة ، ولكن ليس من العقل في شيء أن نشغل بها أنفسنا . وفي وسعنا أن نفترض أن حجمي الشمس والقمر يقربان من حجميهما اللذين يبدوان لنا ، فإذا فعلنا هذا كان في مقدورنا أن نعترف وقتنا في دراسة الإنسان .

والإنسان نتاج طبيعي في جزئياته ومجموعه . وأكبر الظن أن الحياة قد بدأت بالتوالد التلقائي ، ثم ارتقت على غير خطة مرسومة بالانتخاب الطبيعي لأصلح الأشكال^(٢١) . وليس العقل إلا نوعاً آخر من المادة ، والروح جسم مادي رقيق منبث في جميع أجزاء الجسم^(٢٢) ، وهي لا تستطيع أن تحس

أو تعمل إلا بوساطة الجسم ، وتموت بموته . ولكن علينا بالرغم من هذا كله أن نقبل ما ندركه إيجابياً مباشراً من أننا أحرار فيما نريد ، وإلا كنا الأعبى على مسرح الحياة لا قيمة لها ولا معنى لوجودها . وخير لنا أن نكون عبيداً للآلهة التي يقول بها الخلق ، من أن نكون عبيداً للأقدار التي يقول بها الفلاسفة (٢٣)

على أن وظيفة الفلسفة الحقيقية ليست هي تفسير العالم ، لأن الجزء لا يستطيع قط أن يفسر الكل ، بل وظيفتها أن تهدينا في بحثنا عن السعادة . « وليس الذي نضعه نصب أعيننا هو مجموعة من النظم والآراء التي لا جدوى منها ، بل الذي يجب علينا أن نغنى به هو الحياة المبرأة من كل نوع من أنواع الجزع والاضطراب (٢٤) » . وقد كتبت على مدخل حديقة أبيقورتلك الخرافة الخدابة « أيها الزائر ، ستكون هنا سعيداً ، لأن السعادة هنا تعد أعظم خير » ، وليست الفضيلة في هذه الفلسفة غاية في ذاتها ، بل هي وسيلة لا بد منها للوصول إلى الحياة السعيدة (٢٥) . وليس في وسع الإنسان أن يحيا حياة سارة من غير أن يحيا حياة تتصف بالفطنة ، والشرف والعدالة ؛ وليس في وسعه أن يحيا حياة متصفة بالفطنة والشرف والعدالة من غير أن يحيا حياة سارة (٢٦) . وليس في الفلسفة إلا قضيتان اثنتان مؤكدتان ، وهما أن اللذة خير ، وأن الألم شر ؛ والملاذ الجنسية في ذاتها مشروعة ، وستجد الحكمة لها مكاناً فيها ؛ غير أنه لما كانت هذه الملاذ قد تؤدي إلى عواقب وخيمة ، فإنها في حاجة إلى جهاد حصيف فطين لا يستطيعه إلا صاحب الذكاء .

« فإذا قلنا إذن إن اللذة هي أعظم خير ، فلسنا نقصد بذلك لذات الرجل الفاجر الداعر ، أو اللذات التي تقع في مجال المتعة الجنسية ... ولكننا نقصد تحرر الجسم من الألم ، والروح من الاتزعاج . ذلك أن الشراب والمرح الدائمين أو الاستمتاع بصحبة النساء أو ولائم السمك وغيره من الأطعمة الغالية ليست هي التي تجعل الحياة سارة لذيلة ، بل الذي يجعلها كذلك هو التفكير الهادئ (١٤ - قصة الحضارة ، ج ٣ ، مجلد ٢)

الرزين ، الذى يفحص عن أسباب اختيار هذا الشيء وتجنب ذلك ، والذى يطرد الأفكار الباطلة التى ينشأ عنها معظم ما يزعج النفس من اضطراب .

ونخلص من هذا إذن إلى أن الفهم ليس هو أسمى الفضائل فحسب ، بل إنه أيضاً أسمى أنواع السعادة ، لأنه يعيننا أكثر مما تعيننا أية موهبة أخرى من مواهبنا على تجنب الألم والحزن . والحكمة هى وسيلتنا الوحيدة إلى الحرية : فهى تحررنا من رق الانفعالات ، ومن خوف الآلهة ، والفرع من الموت ؛ وهى تعلمنا كيف نتحمل مصائب الدهر ، وكيف نستمد من طينيات الحياة البسيطة ولذات العقل الهادئة لذة عميقة خالدة . وليس الموت خيفاً رهيباً كما نظنه إذا نظرنا إليه نظرة عاقلة قائمة على الذكاء والفتنة ؛ فقد يكون ماينطوى عليه من الألم أقصر أمداً وأخف وقعاً مما عانىناه المرة بعد المرة فى أثناء حياتنا . والذى يخلع على الموت ما يعلق به من رهبة هو أوهامنا السخيفة عما قد يكون وراء الموت . ثم انظر إلى القليل الذى محتاجه القناعة الحكيمة — إنها لا تحتاج إلا إلى الهواء الطلق ، وأرخص الطعام ، ومأوى متضع ، وفراش ، وقليل من الكتب ، وصديق « وكل شيء طبيعى يسهل الحصول عليه ، والقديم النفع وحده هو الكثير النفقة » . وعلينا ألا نقضى حياتنا فى نكد مستمر نحاول أن نحقق كل شهوة تطوف بروؤسنا : « وفى وسعنا أن نغفل الشهوات متى كان عجزنا عن إشباعها لايسبب لنا ألماً بحق (٢٩) » ، وحتى الحب ، والزواج ، والأبوة أمور يمكن الاستغناء عنها ، فهى تعود علينا بلذائد متقطعة ، وبجزن لاينتهى أبداً (٣٠) . وإذا تعودنا المعيشة البسيطة ، والأساليب غير المعقدة ، فذلك طريق لا يكاد يخطئ يوصلنا إلى صحة الجسم (٣١) . والرجل الحكيم لا يمتدح قلبه بالمطامع أو شهوة الصيت ؛ وهو لا يحسد أعداءه على ما نالوا من حظ طيب ، بل إنه لا يحسد أصدقاءه على هذا الحظ ؛ وهو يتجنب ما فى المدينة من حمى

المنافسات وضوضاء المنازعات السياسية ، بل يطلب هدوء الريف ، ويجد أوكد السعادة وأعمقها في هدوء الجسم والعقل . ولما كان هو المسيطر على شهوته ، فإنه يعيش بعيداً عن الادعاء الكاذب ، ويطرح وراءه كل المخاوف ، وتجزيه « حلاوة الحياة » hedone الطبيعية بأعظم أنواع الخير وأعلاها شأنًا وهو السلم .

تلك عقيدة شريفة جديرة بالحب ، ومما يملأ النفس شجاعة أن يجد المرء فيلسوفاً لا يخاف اللذة ومنطقياً لديه كلمة طيبة يقولها عن الجواس . وليس في هذا الكلام غموض وليس فيه تمجيد شديد للفهم ، بل إن الأبيقورية ، على الرغم من أنها هي التي نقلت النظرية الذرية من العهد القديم إلى العصر الحديث ، كانت نقطة تحول من نزعة التشوف القوية التي أنشأت العلم اليوناني والفلسفة اليونانية . وأكبر عيب في هذه الفلسفة هو سلبيتها : فهي تفكر في اللذة على أنها التحرر من الألم ، وفي الحكمة على أنها فرار من مخاطر الحياة وامتلأها ؛ وهي خطوة صالحة طيبة للفردية ولكنها لا تصلح للمجتمع . وكان أبيقور يحترم الدولة لأنه يراها شرأ لا بد منه ، يستطيع تحت حمايتها أن يعيش آمناً من الأذى في حديقته ، ولكن يبدو أنه لم يكن يعنى بالاستقلال القوي ، بل يبدو أن مدرسته كانت في واقع الأمر تفضل الملكية المطلقة عن الديمقراطية ، لأن الأولى أقل من الثانية ميلا إلى اضطهاد الإلحاد^(٣٢) — وهو قلب للعقائد الحديثة يستلقت الأنظار ، وكان أبيقور على استعداد لأن يقبل أية حكومة لا تضع أية عقبة في سبيل طلب الحكمة والصداقة طلباً مطلقاً من القيود والعوائق . وكان إخلاصه للصداقة يعدل إخلاص الأجيال التي سبقته للدولة : « إن الصداقة أهم الوسائل التي تهيئها الحكمة لسعادة الحياة بأجمعها »^(٣٣) . وكانت صداقات الأبيقورين مضرب المثل في دوامها ، ورسائل زعيمهم مليئة بعبارات الحب الخالص القوي^(٣٤) . وقد بادله مريدوه هذا الشعور بالقوة التي نعهدا في مشاعر اليونان : وحسبنا دليلاً على هذا أن الشاب كولوتيز

Colotes حين سمع أبيقور لأول مرة خر راكعاً ، وبكى ، وحياه بأنه إله (٣٥) .

وظل أبيقور ثلاثين عاماً يعلم في حديقته ويفضل المدرسة عن الأسرة حتى إذا كان عام ٢٧٠ قاسى أشد الآلام من حصوة في المثانة ، ولكنه تحمل الألم بصبر عجيب ، ووجد وهو على فراش الموت متسعا من الوقت للتفكير في أصدقائه : « أكتب إليكم في هذا اليوم السعيد الذى هو آخر أيام حياتى . إن انسداد مثانتى ، وآلامى الداخلىة قد وصلا إلى غايتها ، ولكنهما يقف فى سبيلهما ابتهاج عقلى حين أفكر فى حديثى معكم . اعتنوا بأطفال مترودوروس العناية الخليقة بإخلاصكم لى والفلسفة طوال حياتكم (٣٦) . وأوصى بما يملك للمدرسة راجياً « ألا يشعر أى واحد من الذين يدرسون الفلسفة بالحاجة ... على قدر ما تصل إليه قوتنا لمنعها » (٣٧) .

وترك أبيقور وراءه مريدين خلف بعضهم بعضاً زمناً طويلاً ، وقد بلغ من وفائهم لذكراه أن ظلوا قرونًا طوالاً يابون أن يغيروا كلمة واحدة من تعاليمه . وكان أشهر تلاميذه كلهم مترودوروس اللمپسكى Metrodorus of Lampascus وقد أدهش بلاد اليونان كلها أو أثار ضحكها بتلخيصه الأبيقورية كلها فى قوله إن « كل الطيبات ذات صلة بالبطن » (٣٨) ، ولعله كان يقصد بهذا أن الملاذ كلها جسمية وأنها فى آخر الأمر معوية . ورد عليه كريسپوس بتسميته علم البطنة الذى تخصص فيه أركستراتوس «مركز الفلسفة الأبيقورية» (٣٩) . وأساء الجمهور فهم الأبيقورية فنددوا بها علنا وساروا على سننها فى أوساط كبيرة فى جميع أنحاء هلاس . واتبعها كثيرون من اليهود الهلنستيين ، وبلغ من كثرتهم أن أضحت كلمة أبيقورى عند الأجار مرادفة لكلمة مرتد عن الدين (٤٠) . وفى عام ١٧٣ ، أو ١٥٥ أخرج من رومة اثنان من فلاسفة

الأيقوريين بحجة أنهم كانوا يفسلون أخلاق الشباب (٤١) : وبعد مائة عام من ذلك الوقت ألقى شيشرون هذا السؤال : « لماذا كان لأبيقور أتباع بهذه الكثرة ؟ » (٤٢) ، وكتب لكريشيس أكمل وأظرف عرض بقى حتى الآن للطريقة الأبيقورية . وظل للمدرستهم أتباع ينتمون إليها جهرة إلى عهد قسطنطين ، منهم من سوا اسم أستاذه فجعله مرادفا للنهم فى المأكل والمشرب ، ومنهم من ظل أميناً يعلم الحكم البسيطة التى تلخص فيها فلسفته « الآلهة لا ينبغي أن تخاف ؛ والموت لا يمكن الشعور به ؛ والخير يستطاع نيله ؛ وكل ما نرهبه يمكن التغلب عليه » (٤٣) .

الفصل الثالث

التوفيق بين الأبيقورية والرواقية

لما كان عدد متزايد من أتباع أبيقور قد أخذوا يفسرون أقواله بأنه ينصح الناس بالحزى وراء اللذة الحسية فإن النظرية الأساسية في علم الأخلاق - وهي ما هي الحياة الطيبة؟ - لم يتوصل إلى حلها، بل كل ما في الأمر أنها وضعت في صيغة أخرى وهي: كيف يوفق بين أبيقورية الفرد الفطرية وبين الرواقية التي لا بد منها للجاعة وللجنس البشري؟ - وكيف استطاع أن يوحى إلى أعضاء المجتمع أو أن يرهبوا حتى يسيطروا على أنفسهم أو يضحوا بها لأن هذه التضحية وتلك السيطرة لاغنى عنهما لبقاء المجتمع. ولم يعد في مقدور الدين القديم أن يؤدي هذا الواجب، كما أن الدولة القديمة - دولة المدينة - لم تسم بالناس إلى حد يجعلهم ينسون أنفسهم. واتجه اليونان المتعلمون إلى الفلسفة يسألونها الجواب، واستدعوا الفلاسفة يطلبون إليهم التضحية أو السلوى في أزمات الحياة، وبحثوا في الفلسفة عن نظرة إلى العالم تكسب الوجود الإنساني معنى خالداً أو حكمة دائمة في نظام الأشياء، وتمكنهم من أن ينظروا إلى الموت بالذي هم ملاقوه حتماً بلا رهبة ولا فزع. لقد كانت الرواقية آخر ما بذله الأقدمون الأبحاد من جهد للبحث عن مبدأ خلق فطري، ولقد حاول زينون مرة أخرى أن يصل إلى الهدف الذي عجز أفلاطون عن الوصول إليه.

وكان زينون من أهل سيتيوم إحدى مدائن قبرص، وكانت المدينة فينيقية في بعض أحيائها يونانية في أكثرها، وكثيراً ما يقال إن زينون فينيقي، ويقال أحياناً إنه مصري، والذي لا شك فيه أن أبويه مختلط فيهما الدم الهليني والدم السامي^(٤٤). ويصفه أبلونيوس الصوري بأنه نحيل الجسم، طويل القامة،

أسمر اللون ، وأن رأسه كان يميل إلى أحد الجانبين ، وأن ساقيه كانتا ضعيفتين ، ويخيل إلينا أن أفرديني لو عرض عليها لأسلمته إلى أثينا ، وإن لم يكن هفستس Hephaestus خيراً منه . وإذ لم يكن له ما يشغل باله ويشتت جهوده فإنه سرعان ما جمع من التجارة ثروة طائلة ، فلما أن جاء إلى أثينة أول مرة كان لديه ، كما يقولون ، أكثر من ألف وزنة . ويقول ديوجين ليرتيوس إن السفينة تحطمت به عند ساحل أتكا، وإذ فقد ثروته، فوصل إلى أثينة حوالي عام ٣١٤ وهو لا يكاد يملك شيئاً^(٥) . وجلس الرجل إلى جوار دكة كتي وشرع يقرأ في كتاب ممربيليا لأكسانوفون وسرعان ما افتتن بأخلاق سقراط ، وأخذ يسأل : « أين يوجد أمثال هذا الرجل اليوم ؟ » . ومر به في تلك الساعة أقرطيس الفيلسوف الكلبي ، فأشار عليه الكتي أن يتبع ذلك الرجل . فانضم زينون وهو وقتئذ في سن الثلاثين إلى مدرسة أقرطيس وسره أن كشف الفلسفة وقال : « لقد قت برحلة ناجحة موفقة حين تحطمت سفينتي^(٦) » . وكان أقرطيس هذا رجلاً من أهل طيبة نزل عن ثروته البالغ قدرها ثلثمائة وزنه إلى مواطنيه وعاش عيشة الزهد والتقشف التي يعيشها الكليون المتسولون . وكان يندد بالدعارة المنفضية في أيامه ، وينصح الناس بأن يجوعوا ليعالجوا الحب ، وشغفت تلميذته هباركيا Hipparchia بحبه ، لكثرة ما كان لديها من الطعام ، وهددت أبويها بأنها سوف تقتل نفسها إذا لم يزوجاها به ، فتوسلا إلى أقرطيس أن ينصحها بالرجوع عن عزمها ، وحاول هو أن يجيئها إلى ما طلبا ووضع محلاة تسوله بين قدميها وقال لها : « هذا كل ما أملك ، ففكرى الآن فيما تفعلين » ؛ ولم يثن ذلك من عزمها فغادرت منزلها الفخم ، وارتدت ثياب المتسولين ، وذهبت لتعيش مع أقرطيس عيشة العشق الحر الطليق . ويقال لنا إن زواجهما قد تم علنا، ولكن حياتهما كانت مثلاً أعلى في الحب والوفاء^(٧) .

وأثرت في نفس زينون حياة الكليين البسيطة الصارمة ؛ ذلك أن أتباع

أنستانس قد أصبحوا وقتلهم الرهبان الفرنسيسكان في الزمن القديم ، نذروا أن يعيشوا فقراء زاهدين ، ينامون في أى مأوى طيعى يعثرون عليه ، ويعيشون على صدقات الناس الذين يمنعهم جدهم أن يكونوا قديسين . وأخذ زينون عن الكليين المبادئ الأولية لنظامه الأخلاقى ، ولم يحاول قط أن يخفى ما هو مدين به إليهم : وقد تأثر بهم في أول كتاب له وهو كتاب الجمهورية تأثراً جعله يعتنق شيوعيتهم الفوضوية التى لا تكون فيها نقود ، ولا ملكية ، ولا زواج ، ولا دين ، ولا شرائع^(٤٨) . ولما أدرك أن هذه الطوبى ، وأن نظام التغذية الكلى ، لا يصلحان لأن يكونا منهاجاً عملياً للحياة ، فارق أقراطيس . وأخذ يدرس مع زوقراطيس في المجمع ومع استلپو المغارى . وما من شك في أنه قرأ كتب هرقليطس قراءة استيعاب لأنه أدخل في أفكاره كثيراً من آراء هرقليطس — كالنار المقدسة بوصفها روح الإنسان والكون ، وأبدية القانون وتكرار خلق العالم واحتراقه ؛ ولكن كان من عادته أن يقول إنه مدين لسقراط بأكثر مما هو مدين به لغيره من الفلاسفة ، وإن سقراط هو معين الفلسفة الرواقية ومثلها الأعلى .

وبعد أن قضى زينون كثيراً من السنين تحت وصاية غيره من الفلاسفة أنشأ أخيراً مدرسته الفلسفية الخاصة به في عام ٣٠١ ، وذلك بأن أخذ يتحدث إلى الطلاب وهو رائج غاد تحت أعمدة الاستواء بوسيلى Stoa Poecile أو المدخل المحدد . وكان يرحب بالفقراء والأغنياء على السواء ، ولكنه لم يكن يشجع انضمام الشبان إلى تلاميذه ، لأنه كان يشعر بأن الفلسفة لا يفهمها إلا الرجال الناضجو العقل . وحدث أن أطال أحد الشبان في الكلام فقال له زينون « لقد خلق لنا أذنان وفم واحد لكى ننصت كثيراً ونتكلم قليلاً »^(٤٩) . وحضر أنتجونس الثانى وهو في أئينة دروس زينون ، وأضحى صديقاً له معجباً به ، يستنصحه في مهام الأمور ، وأغراه بالترف برهة وجيزة ، ودعاه لأن يعيش

ضيفا عليه في بلا Pella ، ولكن زينون اعتذر له وأرسل إليه بدلا منه تلميذه
پرسیوس Persaeus ، وظل هو أربعين عاما (*) يعلم في الاستوا ويعيش عيشة
تتفق وتعاليمه اتفاقا أصبحت معه عبارة « أكثر اعتدالا من زينون » مثلا سائرا
في بلاد اليونان . وأسلمته الجمعية الأثينية رغم صلته الوثيقة بأنتجونس « مفاتيح
الأسوار » ، ووافقت على المال الذي خصص لإقامة تمثال له وإهدائه تاجا ،
وهذا نص القرار :

« لما كان زينون الستيوي قد قضى سنين كثيرة في مدينتنا يدرس الفلسفة ،
ولما كان في كل ما عدا هذا رجلا طيبا (هكذا) ، يخص جميع الشبان الذين
يسعون لصحبته على الاعتدال في حياتهم ويجعل حياته أنموذجا لأعظم ما تسمو
إليه الحياة ... فقد صحت عزيمة الشعب على تكريم زينون ... وعلى أن يهديه
تاجا من الذهب ... وأن يبنى له قبرا في حي الرمكس من الأموال العامة » (٥١) ،
والشائع أن موته كان في سن التسعين ، ويقول ليرتيوس إنه مات بالطريقة
الآتية : « بينا هو خارج من مدرسته إذ زلت قدمه وكسر إصبع من أصابعها ،
فضرب الأرض بيده وأعاد بيتا من الشعر في نيوبى وهو « لقد جئت ؛ فلم
تناديني على هذا النحو ؟ ثم خقق نفسه من فوره » (٥٢) .

وواصل عمله في الاستوا رجلا من يونان آسية هما أقلاينتوس الأسوسي
Cleanthes of Assus ومن بعده أقريسيوس الصولي Chrysippus of Soli
وكان أقلاينتوس ملاكما محترفا قدم إلى أثينة ومعه أربع درخات ، واشتغل فاعلا
جاديا ، ورفض أن يتقاضى إعانة من الدولة ، ودرس على زينون تسعة عشر
عاما ، وعاش مجدا فقيرا زاهدا ، أما أقريسيوس فكان أكثر تلاميذ المدرسة

(٥١) إن جميع التواريخ الواردة عن زينون ماثار الجدول ؛ والأصول المأخوذة منها
متناقضة . وقد استنتج زلر Zeller من بحوثه أن مولده كان في عام ٣٥٠ ، وأن وفاته كانت
في عام ٢٦٠ (٥٠) .

علما وإنتاجا ، وهو الذى أكسب العقيدة الرواقية صورتها التاريخية بأن شرحها فى ٢٧٠ كتابا، جعلت ديونيشيوس الهلكرنسى **Dionysius of Halicarnassus** يعدها أنموذجا لغزارة العلم المملة . وانتشرت الرواقية من بعده فى جميع أنحاء هلاس، وكان أعظم دعائها فى آسية: بانيتيوس الرودى **Panaetius of Rhodes** وزينون الترسوسى ، وبوثيوس الصيداوى **Boethus of Sidon** ، وديجين السلوقى . وكل الذى نستطيعه للتعريف بها هو أن نؤلف مما عثرنا عليه عرضا من النتف الباقية من المؤلفات الضخمة الكثيرة التى كتبت عنها صورة لأوسع فلسفات العالم القديم انتشارا وأعظمها أثرا .

وأكبر الظن أن أقريسيوس هو الذى قسم الفلسفة الرواقية إلى منطق ، وعلوم طبيعية ، وأخلاق . وكان زينون ومن جاء بعده يفخرون بما كتبوه فى النظريات المنطقية ، ولكن أنهار المداد التى فاضت بها أفلامهم فى هذا الموضوع لم تترك أثرا ملحوظا فى إنارة العقول أو فى نفعها(*) . لقد كان الرواقيون يتفقون مع الأبيقوريين فى أن المعرفة لا تنشأ إلا من الحواس ، وكان المقياس النهائى للحقيقة فى رأيهم هو المدركات الحسية التى تضطر العقل إلى قبولها بما فيها من وضوح أو ثبات ، على أنه ليس من الضرورى أن تؤدى التجارب إلى المعرفة ، لأن بين الحواس والعقل توجد العواطف أو الانفعالات ، وهذه قد تشوه التجارب فتجعلها أخطاء ، كما تشوه الرغبات فتجعلها رذائل . والعقل هوسمى ما أحرزه الإنسان ، وهو بذرة من بذور العقل الكلى الذى وضع قواعد العالم .

والعالم كالإنسان مادى بأكمله وإلهى بفطرته . فكل ما تنقله لنا الحواس مادى ، والأشياء المادية دون غيرها هى التى تحدث الأفعال أو تستقبلها .

(*) مع استثناء إضافات قليلة للمصطلحات ككلمة **logic** (المنطق) نفسها . وقد شبه أرسطو **Aristo** تلميذ زينون المناطقة بقوم يأكلون الحيوانات الصدفية البحرية ، فهم يبدلون كثيرا من الجهد ليحصلوا على قش - - - - - . نسخة بين كثير من النسخ (٢٥٣) .

والصفات والكميات ، والفضائل ، والانفعالات ، والنفس والجسم ، والله والنجوم ، كلها صور مادية أو عمليات ، تختلف في درجة رقبتها ، ولكنها واحدة في جوهرها (٥٤) . غير أن المادة كلها حركية ، مملوءة بالتوتر والقوى ، لاتنقطع عن العمل على الانتشار أو التركيز ، يبعث فيها الحياة من داخلها وخارجها النشاط والحرارة أو النار . والعالم يعيش بوساطة عدد لا يحصى من دورات التمدد والانكماش ، والتطور والانحلال ، يحترق من آن إلى آن في لهب عظيم ، ثم يتشكل على مهل من جديد . ثم يعود في تاريخه القديم كله بأدق تفاصيله (*) لأن تسلسل العلل والمعلولات يسير في دائرة مفرغة ويتكرر إلى غير نهاية . وكل الحوادث وكل أعمال الإرادة مقررة معينة ، ومن المستحيل على شيء ما أن يحدث على نحو يخالف ما حدث عليه ، كما أنه يستحيل على شيء أن ينشأ من لا شيء ؛ ولو حدثت أية ثغرة في السلسلة لتمزق العالم .

والله في هذا النظام هو البداية والوسط والنهاية . وكان الرواقيون يعرفون بضرورة وجود الدين ليكون أساساً للأخلاق الفاضلة ؛ فكانوا ينظرون نظرة التسامح اللطيفة لعقائد الشعب الدينية وما فيها من شياطين ، ومن تنبؤ بالغيب ، وكانوا يجلبون لهذه تفسيرات مصوغة في تشبيهات ومجازات يسدون بها الثغرة الفاصلة بين الخرافة والفلسفة . وكانوا يقبلون علم التنجيم الكلداني ويعتقدون بصحته في جوهره ، ويرون أن شئون الأرض تنطبق انطباقاً خفياً مستمراً على حركات النجوم (٥٥) . فكان ذلك لديهم صورة من صور التعاطف العالمي الذي يجعل كل ما يحدث في جزء منه يؤثر في سائر الأجزاء . وكانهم أرادوا ألا يكفوا بوضع نظام أخلاقي للمسيحية ، بل شاعوا أن يضعوا لها أيضاً نظامها الديني ، ففكروا في العالم ، والشرائع ، والحياة ، والنفس ، والأقدار من حيث

(٥) وإنا ليرنا ويقضى على مخاوفنا أن نعلم أن من الرواقين من لم يكونوا واثقين

كل الثقة من هذه المسألة .

صلتها بالله، وعرفوا الأخلاق الفاضلة بأنها الاستسلام عن رضا واختيار لإرادة الله . والله عندهم ، كالإنسان ، مادة حية ؛ فالعلم كله جسمه ، ونظام العالم وقانونه عقله وإرادته ؛ والكون كائن حي ضخم ، الله روحه ، ونسمته المنعشة ، وعقله المخصب ، وناره الحركة المنشطة (٥٦) . وترى الرواقين أحيانا يفكرون في الله تفكيراً مجرداً غير مجسد ؛ ولكنهم يصورونه في الأكبر الأهم على أنه قوة مدبرة تضع للكون خطته وترشده بعقلها الأعلى ، وتنظم أجزائه كلها لتؤدي أغراضاً تنطبق على العقل ، وتجعل كل شيء فيه يعود بالنفع على الأفاضل من الناس . ويوحّد أفلاينتوس بين الله وزيوس في ترنيمة توحيدية خليقة بأن ينطق بها إخناتون أو إشعيا :

حمدا لك يازيوس ، حمدا يفوق حمد جميع الآلهة : إن أسماءك لكثيرة ، وإن قوتك لأعظم القوى إلى أبد الدهر .

منك بدأ العالم ، وأنت تحكم الأشياء كلها بقوة القانون ، وإليك تتحدث كل الأجسام لأننا نحن جميعاً أبناءك .

ومن أجل هذا أرفع إليك نشيدا أتغنى فيه بقوتك :

إن نظام الكون بأجمعه يطيع كلستك في تحركها حول الأرض حيث تختلط الأضواء الصغيرة والكبيرة : ألا ما أجل شأنك لك الملك إلى أبد الدهر !

لا شيء يحدث على الأرض إلا بعلمك ، ولا في السماء ولا في البحار : إلا ما يفعله الأشرار : مدفوعين إليه بمهمهم ؛

ولكن لك من الخلق ما يصلح المعوج نفسه ، وما لاصورة له يصور والبعيد أمامك قريب

وهكذا نظمت الأشياء كلها فجعلتها وحدة : خيرا وشرها : حتى تكون كلمتك واحدة في الأشياء جميعها : باقية إلى الأبد .

طهر نفوسنا من الحماقة ، حتى نرد إليك

الفضل الذى تفضلت علينا به :

فتتغنى بمدح أعمالك إلى أبد الأبدين :

غناء يليق ببنى الإنسان (٥٧) .

وما أشبه الإنسان والعالم بالكون الصغير فى الكون الكبير ، فهو أيضاً كائن حى ذو جسم مادى والنفس مادية ، ذلك بأن كل ما يحرك الجسم أو يؤثر فيه ، وكل ما يحركه الجسم أو يؤثر فيه ، لا بد أن يكون ذا جسم . والنفس نسيم نارى (نيوما Pneuma) منبثة فى جميع أجزاء الجسم ، كما أن النفس العالمية منبثة فى جميع العالم . وهى تبقى بعد الجسم إذا مات ، ولكنها تبقى على هيئة طاقة غير شخصية . وحين يحدث اللمب الأخير تمتص الروح مرة أخرى فى محيط الطاقة وهو الله كما يمتص أتمان Atman فى برهمان Brahman .

وإذ كان الإنسان جزءاً من الله أو الطبيعة فإن من اليسير أن تحل المشكلة الأخلاقية على النحو الآتى : الخير هو التعاون مع الله أى مع الطبيعة ونعى بها قانون العالم . وليس الخير هو الجرى وبراء الاستمتاع أو اللذة لأن هذا الجرى يخضع العقل للشهوة ، وكثيراً ما يؤذى الجسم أو العقل ، وقلما يرضينا فى آخر الأمر . ولا يمكن أن تتحقق السعادة إلا بالموازنة بين أغراضنا وسلوكنا من جهة ، وبين أغراض العالم وقوانينه من جهة أخرى ؛ وليس ثمة تعارض بين صالح الفرد وصالح الكون ، لأن قانون الخير فى حالة الفرد يتفق مع قانون الطبيعة . وإذا لحق الشر بالرجل الطيب فإن هذا لا يكون إلا إلى أجل قصير ، وليس هو فى واقع الأمر شراً ؛ ولو أننا استطعنا أن نفهم الأمر كله لرأينا ما وراءه من خير مهما يظهر فى أجزائه من شر (*) . والرجل العاقل لا يدرس العلوم

(*) يقول أتريسوس إن الحروب تصحيح مفيد لازدحام العالم بالسكان ، ويق الفراش يفيد فى معنا من الإفراط فى النوم (٥٨) .

الطبيعية إلا بالقدر الذى يكفى لمعرفة قانون الطبيعة ثم يكيف حياته وفق هذا القانون ، وغرض العلم والفلسفة والمبرر الوحيد لدراستهما هما تمكيننا من أن نعيش وفق الطبيعة Zen.Kata physion . ويسلم أفلاطون لإرادته لإرادة الله فى ألفاظ تكاد أن تكون هى بعينها ألفاظ نيومن Neuman :

اهدنى يا الله ، وأنت يا قدرى ،

إلى ذلك المكان الوحيد الذى تريدنى أن أشغله .

وسأتبع هديكما مسرورا . فإذا ما وصلت معكما

ثم نكثت العهد ، فلا بد لى من أن أوصل السير معكما (٥٩) .

ومن أجل هذا يتجنب الرواقى الترف والتعقيد ، والمنازعات السياسية والاقتصادية ؛ وهو يقنع بالقليل ، ويقبل بلا تذر صعاب الحياة وما يلاقه فيها من خيبة . ولا يابى بشيء غير الفضيلة والرزيلة - لا يبالى بالمرض والألم ، بحسن السمعة أو سوءها ، بالخرية أو الرق ، بالحياة أو الموت . ويقمع كل شعور يقف فى وجه سير الطبيعة أو يبعث على الارتياح فى حركتها : فإذا مات ولده لم يحزن ، بل يرضى بحكم القدر معتقداً أنه أحسن الأحكام وإن خفى الأمر عليه ؛ ويسعى لأن يكون مجرداً من الشعور تجرداً تاماً ، حتى يكون هدوء عقله آمناً من جميع تقلبات الحظ ، أو الرحمة ، أو الحب ، أو من وقعها عليه (٦٠) . وعلى الرواقى أن يكون معلماً قاسياً ، وإدارياً صارماً ، وبالجملة لا تتضمن الانطلاق من القيود ، بل يجب علينا أن نكبح جماحنا وأنفسنا غيرنا ، وأن نتحمل من الناحية الخلقية تبعات جميع أفعالنا . ولا أن نضرب

(٥) واقترح كريستوس أن يمتصر فى العناية بالموتق من الآقارب على ذنهم بأبسط الوسائل وأهدئها ، ثم قال إن غيرنا من هذا العنصر نقتد لهمهم (٦٠) .



(شکل ۶۲) رأس هلنسوق (:تجارت فزی)

زينون عبده لأنه سرق ، وكان العبد يعرف قليلا من العلم ، قال له : «ولكني قد قدر على أن أسرق» ، فرد عليه زينون بقوله : «وقدر أيضاً أن أضربك» (٦١) ويرى الرواقى أن جزاء الفضيلة هو الفضيلة نفسها ، وأنها واجب مطلق وأمر محتوم ، مستمد من اشتراكه في الألوهية ؛ وإذا أصابه مكروه عزى نفسه بأنه حين يتبع القانون الإلهي يصبح هو الله مجسداً (٦٢) . فإذا سئم الحياة ، واستطاع أن يفارقها من غير أن يسبب الأذى لغيره ، فلا حرج عليه من أن ينتحر . ولما بلغ أفلانيوس سن السبعين شرع يصوم صوما طويلا ، ثم قال إنه لن يعود بعد أن قطع نصف الطريق ، وواصل الصوم حتى مات (٦٣) .

على أن الرواقى مع هذا ليس بالرجل غير الاجتماعي ، وهو لا يفخر بالفقر كالكلبي ، ولا يفخر بالوحدة كالأبيقورى . وهو يوافق على الزواج وعلى وجود الأسرة ويراهما لازمين ، وإن كان لا يمتدح الحب الرواقى ؛ وهو يتطلع إلى وجود مدينة فاضلة تكون فيها النساء شركة بين الرجال (٦٤) . ويقبل وجود الدولة ، بل يقبل الملكية المطلقة نفسها ؛ وليست لديه ذكريات عزيزة عن دولة — المدينة ، ويرى أن أوساط الناس مغفلون شديدو الخطر ، ويفضل الملوك المطلقى السلطة على تحكيم الغوغاء ؛ والحق أنه قلما يعنى بأية حكومة ، ويتمنى أن يكون الناس كلهم فلاسفة ، حتى تصبح القوانين لاضرورة لنا . وهو لا يفكر في الكمال كما يفكر فيه أفلاطون أو أرسطو من حيث علاقته بخير المجتمع ، بل يفكر فيه من حيث علاقته بالرجل الصالح . ولا يرى حرجا في أن يشترك في الشؤون السياسية ، ويناصر كل حركة ، مهما تكن ضعيفة ، تهدف إلى الحرية والكرامة الإنسانية ، ولكنه لا يقيد سعادته بقيود المنصب أو السلطان . وهو يرضى بأن يضحى بحياته في سبيل بلاده ، ولكنه يرفض (١٥ - قصة الحضارة - ج ٣ ، مجلد ٢)

كل وطنية تقف في سبيل ولائه للإنسانية بأجمعها ؛ فهو والحالة هذه مواطن حالي . وكان زينون ، وهو الذي يجرى في عروقه ، كما سبق القول ، الدم اليوناني والدم السامى ، يتوق كما يتوق الإسكندر لتحطيم الحواجز العنصرية والقومية ؛ وإن نزعته الدولية لتكشف عن فكرة الإسكندر التي كانت آخذة في الزوال ، فكرة توحيد بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط . وكان زينون وكريسيبوس يأملان في آخر الأمر أن يحل المجتمع واحد كبير محل تلك الدول والطبقات المتطاحنة ؛ وبألا يكون في هذا المجتمع الحديد أغنياء وفقراء ، أوسادة وعبيد ؛ يحكمه الفلاسفة فلا يظلمون ، ويكون فيه الناس جميعاً إخوة لأنهم أبناء إله واحد^(٦٥) .

وملاك القول أن الرواقية كانت فلسفة نبيلة ، وأنها كانت فلسفة عملية إلى حد أبعد مما يتوقعه الساخر منها في الوقت الحاضر . لقد وحدث هذه الفلسفة جميع عناصر الفكر اليوناني وبذلتها في مجهود نهائى قام به العقل الوثني لوضع نظام أخلاقى ترتضيه الطبقات التي خرجت على الدين القديم ؛ ومع أنه لم ينضو تحت لوائها إلا أقلية ضئيلة ، فإن هذه الأقلية أينا وجدت كانت خير العناصر . وقد أنتجت كما أنتج المذهبان المسيحيان المقابلان لها — وهما الكلفنية والمترمنة — أقوى الأخلاق في زمنها . على أننا إذا نظرنا إلى هذه الفلسفة من الوجهة النظرية رأيناها عقيدة شاذة مروعة تهدف إلى كمال قاس يتطلب من أصحابه اعتزال المجتمع ، ولكنها في واقع الأمر قد خلقت رجالا شجعانا ، قديسين أطهاراً ، خيرين أمثال كاتو الأصغر ، وإبيكتتس Epictetus ، وماركس أورليوس . ولقد تأثر بها الفقه الرومانى فوضع على هديها تشريعا للأُمم غير الرومانية ، وأعانت على حفظ كيان المجتمع القديم حتى ظهر له دين جديد . ولسنا ننكر أن الرواقين قد شدوا من أزر الخرافات ، وأنهم كان لهم أثر سيئ في العلوم الطبيعية ، ولكنهم رأوا بنافذ بصيرتهم المشكلة الأساسية القائمة في عصرهم

— وهى أساس الأخلاق الدينى — وبذلوا مجهوداً شريفاً لملء الهوة الفاصلة بين الدين والفلسفة . لقد كسب أبيقور اليونان وضمهم إلى لوائه ، أما زينون فقد كسب أرستقراط رومة ، وظل الرواقيون إلى آخر تاريخ الوثنية يحكمون بالأبيقوريين ، وسيظلون على الدوام هم الحاكمين لهم . ولما أن نشأ دين جديد من أنقاض الفوضى العقلية والأخلاقية الضاربة أطنابها فى العالم الملئسى ، كانت السبيل قد مهدتها لهذا الدين فلسفة آمنت بضرورة الدين ، ونادت بعقيدة تقشفية من مبادئها البساطة وضبط النفس ، عقيدة ترى فى الله كل شيء .

الفصل الرابع

العودة إلى الدين

لقد مر النزاع بين الدين والفلسفة حتى الوقت الذي نتحدث عنه في ثلاث مراحل : مهاجمة الدين كما حدث قبل عهد السقراطيين ؛ والمحاولة التي تهدف إلى استبدال قانون أخلاقي طبيعي بالدين كما فعل أرسطو وأبيقور ؛ ثم العودة إلى الدين كما فعلت المشككة والرواقية - وتلك هي الحركة التي انتهت بظهور الأفلاطونية الجديدة والمسيحية . وقد حدث مثل هذا التعاقب أكثر من مرة في تاريخ العالم ، ولعله يحدث أيضا في هذه الأيام . فطاليس يقابل جاليليو ، ودمقريطس يقابل هُبنز ، والسوفسطائيون يقابلون رجال دوائر المعارف الفرنسيين ، وبروتاغوراس يقابل فلتير ؛ ثم إن أرسطو يقابل سبنسر ، وأبيقور يقابل أناتول فرانس ؛ وبيرون يقابل بسكال ، وأرسطوس يقابل هيوم ، وأقرينداس يقابل كانت ، وزينون يقابل شوبنهاور ، وأفلوطين Plotinus يقابل برجسن . نعم إن الترتيب التاريخي لهؤلاء الفلاسفة يجعل التشابه بينهم غير يسير ، ولكن الاتجاه الأساسي للتطور واحد في جميع الأحوال .

لقد تخلى عصر النظم العظيمة عن مكانه إلى التشكك في قدرة العقل الإنساني على فهم العالم أو للسيطرة على غرائز الناس وإخضاعها للنظام والحضارة . ولقد كانت هذه حال المشككة بالمعنى الذي يقصده منها كانت لاهيوم : فقد كان هؤلاء يرتابون في الفلسفة كما يرتابون في العقائد التحكيمية ، وسخطوا أسس المادية ، وأشاروا بقبول الطقوس الدينية القديمة في هدوء . ولم يبعد التشكك الناس على يد بيرون ، كما لم يبعدهم على يد بسكال ، عن الدين بل قادهم إليه ، وقد ختم بيرون نفسه حياته بأن كلنا كاهن المدينة الأكبر المبجل . ولم يكن هجر

الأيقوريين للسياسة واتجاههم نحو القوانين الأخلاقية ، وفرارهم من الدولة إلى الروح ، لم يكن هذا كله إلا لحظة قصيرة في الرجعة إلى العهد الأول ؛ وقد مهد قصر الاهتمام على النجاة الفردية الطريق إلى ظهور دين يستهوى الفرد أكثر مما يستهوى الدولة : وكان ثمة كثيرون من الناس لا يستطيعون أن يجدوا في الحياة ما وجدته فيها أبيقور من سلوى اقتنع بها ورضى ، فقد حلت بهم النفاقة ، أو مصائب الدهر ، أو المرض ، أو الثكل ، أو الثورة ، أو الحرب ؛ وتركت نصائح الدهر كلها أفئدتهم فارغة . وها هو ذا هجسias القوريني Hegesias of Cyrene قد بدأ في نظر القورينيين كما بدأ أبيقور ، ولكنه انتهى إلى الاعتقاد بأن في الحياة من الألم أكثر مما فيها من اللذة ، ومن الحزن أكثر من الفرح ، وأن النتيجة الوحيدة التي تتمخص عنها الفلسفة الطبيعية هي الانتحار (*) . وقد فعلت الفلسفة ما تفعله الابنة الضالة بعد المغامرات المبهجة وزوال الخلداع عن بصيرتها ، فأقلعت عن الجرى وراء الحقيقة والبحث عن السعادة ، وعادت بعد أن تابت وأتابت إلى أمها الدين ، تبحث فيه مرة أخرى عن أسس تقيم عليها آمالها ومبادئ تؤيد بها صدقاتها .

وبينا كانت الرواقية تسعى لإقامة صرح القانون الأخلاقي للطبقات المفكرة ، كانت تعمل أيضا للاحتفاظ بمعونة القوى غير الطبيعية لتدعم بها أخلاق الرجل العادى ، وصبغت فكرتها الميتافيزيقية والأخلاقية صبغة دينية أخذت تقوى على مر الزمان . وكان زينون ينكر كل وجود حقيقى للآلهة التى يقول بها العامة (١٧) ، ولكن أقلا نيتوس بعد جيل واحد اقترح محاكمة أرسنارخوس لأنه ملحد . ولم يكن زينون يدعو إلى شيء من الفساد الخلقى الشخصى ، ولكن سنكا كان يتحدث عن النعيم فى الدار الآخرة بألفاظ لاتكاد تفرق فى شيء

(*) وقد بلغ من فصاحته فى تأييد ما أدلى به من حجج أن ثارت فى الإسكندرية موجة من الانتحار اضطر بطليموس الثالث على أثرها أن يخرجها من مصر (٦٦) .

عن العقائد الأليوزينية Eleusinian والمسيحية^(٦٨). ولقد أصبحت الرواقية بعد زينون ديناً أكثر منها فلسفة ، واتخذ كل مبدأ من مبادئها صورة دينية ، وكان الجزء الأكبر من نظامها يتألف من جدول يدور حول وجود اللئوطيغته ، وانبعث العالم من الله ، وحقيقة القوة المدبورة ، واتفاق الفضية مع الإرادة الإلهية ، وأخوة البشر تحت سيطرة أبوة الله ، وعودة العالم في آخر الأمر إلى الله . وفي هذه الفلسفة نجد معنى الخطيئة الذي كان له شأن أعظم شأن في المسيحية الأولى وفي البروتستنتية : ونجد فيها ذلك الشمول السامى الذى يرحب كما رحب في المسيحية من بعد بكل الأجناس والطبقات ، والزهد وعدم الزواج المأخوذ من الكليين والذين أممنا ذلك العدد العظيم من الرهبان المسيحيين ، والحق أنه لم يكن بين زينون الطرسوسى وبولس الطرسوسى إلا خطوة واحدة يخطوها العالم في الطريق إلى الدهشقى .

ولقد كانت عناصر كثيرة في العقيدة الرواقية أسيوية في أصلها ، وكان بعضها سامياً خالصاً - ولم تكن الرواقية في جوهرها إلا مرحلة واحدة أولية من مراحل انتصار الشرق على الحضارة الهلنية . إن بلاد اليونان لم تعد بلاد اليونان قبل أن تفتحها رومة .